اجتهادات المؤسس

صقل موهبته عبر الإنصات إلى التواشيح والمعزوفات الموسيقية القديمة واستلهام التراث الفنى، إذ لم تتوافر له فرصة الدراسة التى حلم بها فى إيطاليا. وعبر عن هموم الفقراء والصنايعية دون أن يعرف شيئًا عن أفكار الاشتراكية والعدالة الاجتماعية. وكان فى الوقت نفسه مناضلا فى صفوف الحركة الوطنية ضد الاحتلال. شحذ الهمم فى ثورة 1919 بأغنياتٍ هزت الوجدان، وغنى لزعيمها أغنيته المشهورة (يا بلح زغلول) حين فرضت السلطة البريطانية عقوبة على من يذكر اسم سعد زغلول.

كلُ هذا، وأكثر منه، فى ستة أعوام لا غير هى الفترة التى أبدع فيها الفنان العظيم سيد درويش أعماله الفنية، خلال حياته القصيرة التى لم تتجاوز 31 عامًا. فترة أجاد المؤرخ والناقد الموسيقى فيكتور سحاب تقديم رؤية جديدة لها فى كتابه «المؤسس» الصادر حديثًا عن دارى نشر نلسون وريشة.

فى تلك الفترة القصيرة، وضع سيد درويش أساسًا قويًا لتطوير الموسيقى العربية، من خلال مزجٍ خلاَّق بين قديمها الأصيل

الذى استوعبه جيدًا، والجديد الذى كانت بداياته وافدةً عن طريق فرق غربية حضر عروض كثيرٍ منها فى تياترو الكورسال، وعرف بالتالى آلات الأوركسترا, وكان أول من استخدم بعضها.

كما أنه هو من شرع فى فصل الموسيقى العربية عن التركية. فقد كانت اللكنةُ التركية غالبةً فى الموسيقى العربية قبله. وحقق تلك النقلة التاريخية بشكل تلقائى نتيجة وجوده وسط الناس وتفاعله معهم واستماعه إلى العمال وهم يُغنون للتغلب على مشقة العمل دون أن تؤثر فيهم تلك اللكنة.

درويش هو المؤسس، إذن، للتزاوج بين القديم والحديث فى الموسيقى العربية. وقد وُفق سحاب فى اختيار دوره هذا موضوعًا لكتابٍ يُقدَّم جديدًا رغم كثرة ما كُتب فى موضوعه. فهو يشرحُ كيف أحدث درويش ثورةً فنية فى تأليف المقطوعات الموسيقية وتلحين المسرحيات والأوبريتات, ومن ثم فى التعبير الدرامى فى الغناء العربى.

ومن أهم ما أسَّسه أيضا جسر تاريخى وصلت عن طريقه الأغنية إلى عموم الناس وأثرت فى وجدانهم، بعد أن كان الاهتمام بها محصورًا فى قمة المجتمع. فشكرًا للمؤلف، وسلامًا لروح المؤسس.